

١٥٠
رَفْعُ نُورِي بِوَجْهِ الطَّبِيعِ
مدرس مساعد بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

التحولات والظواهر في المغرب العربي
الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغلبية

الطبعة الأولى

١٩٦٣ - ١٩٧٣ م

MÖZ
297.64
ABD.H



رفيع فوزى بهير الطيب
مدرس مساعد بكلية دار العلوم
جامعة القاهرة

الخلافة والخروج في المغرب العربي الصراع بينهما حتى قيام دولة الأغلبية

الطبعة الأولى

١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ، وصلى الله وسلم على عباده الذين اصطفى وعلى محمد خاتم النبيين والمرسلين

ويعهد . . .

فموضوع هذا البحث : الصراع بين الخلافتين الأموية فالعباسية والخوارج في بقعة عربية إسلامية ، وهي المغرب العربي منذ بدأ نشاطهم وثوراتهم فيه إلى أن قامت دولة الأغالبة عام ١٨٤ هـ ، ونقصد بالخوارج أولئك الذين كانوا يؤمنون بما آمن به من خرجوا على الإمام على كرم الله وجهه بعد حادثة التحكيم .

واقصرنا على الفترة المذكورة لأن الصراع بعدها لم يكن في حقيقته صراعا بين الخلافة العباسية وهذه الفرقة ؛ وإنما كان صراعا بين دول إقليمية في المغرب العربي (١) ؛ لأن دولة الأغالبة كانت شبه مستقلة عن الخلافة العباسية وتابعة تبعية إسمية لها ، وهي عندما تدخل في صراع مع الخوارج فمن أجل حفظ كيانه ونفوذها قبل أن يكون من أجل حفظ كيان الخلافة العباسية ونفوذها .

وقد عانت كلتا الدولتين - حكومة وشعبا - الأمرين من جراء هذه الثورات ، ومهما قيل عن المبالغات التي تتسم بها روايات المؤرخين المتقدمين في تقدير عدد الجيوش والقتلى ، فالذي لا شك فيه أن جيوش الخلافة قد اضطرت إلى توجيه جهودها لإخماد الثائرين بدلا من توجيهها إلى الفتوح وتأديب الأعداء الذين يكيدون للأمة العربية والإسلامية ، والذي لا شك فيه أيضا أنه كان هناك ضحايا كثيرين من العرب والمسلمين انفض عنهم غبار كل معركة من المعارك التي قامت بين الأخوة الأشقاء ، وسواء انتصرت الخلافة أو انتصر الثائرون ، فالنتيجة كانت واحدة : وهي إضعاف الأمة الإسلامية ، وتأريث للضعف بين أفرادها .

(١) كان الصراع بين الأغالبة في القبر وان والدولة الرسمية الخارجية ، كما كان هناك صراع أيضا بين دولة زني مدرار بسجلماسة وهي دولة خارجية وبين الإدارة في فاس .

وتاريخنا الإسلامي مظلوم لأنه ابتلى ببعض المؤرخين من المستشرقين الذين يكيدون للأمة الإسلامية وللدین الإسلامي ، ويتخذون من الخلافات التي حدثت بين المسلمين مادة للطعن في الإسلام ، وبث النزعة الانفصالية بين أجزاء الأمة الإسلامية أو الطعن في أولئك الأبطال الذين حملوا راية دعوتها ؛ دعوة الحق والعدل ينشرونها في بقاع الأرض ، غير مباليين بما يبذلون في سبيل ذلك من نفس أو نفيس .

والفقرة التي نتحدث عنها تنضح فيها هذه الظاهرة كأوضح ما تكون ، وهذا يتطلب منا أن نبذل الجهد في كتابة تاريخنا الإسلامي بأقلام تفهم رسالة الإسلام أولاً ، وتقدر الجهد الذي بذله أسلافنا من أجل نشر لوائه خفاً عالياً ثانياً .

حقيقة لقد كانت هناك انحرافات في الدولة نشأ عنها جل هذه القلاقل التي حدثت بالمغرب الغربي ؛ لكن هذا لم يكن ناجماً عن تطبيق مبادئ الإسلام ، وإنما كان ناجماً عن الخطأ في تطبيق هذه المبادئ ، والسير على هداها ، وهذا هو موطن العبرة والعظة والاستفادة من تاريخنا الإسلامي ؛ فيقدر ما نسير على مبادئ الإسلام بقدر ما نسعد وننجد ، ونكون قوة واحدة ، وبقدر ما نبتعد عن هذه المبادئ وتناساها بقدر ما نتمزق ونثار بيننا نهرات لاقليمية نشق بها في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى الاتحاد لمواجهة عدو غادر تسانده قوى الشر والبهى .

ولقد تناول هذا الموضوع من قبل بعض مؤرخينا المحدثين لكنهم تناولوه ضمن بحوث أشمل تناول تاريخ المغرب العربي جملة ، وهذا ما أعوز الموضوع عندهم إلى شيء من العمق والشمول اللذين نرجو أن يكون هذا البحث قد اقترب من تحقيقهما . ومهما يكن من شيء فقد ارتادوا الطريق ومهدوه ، فكان لهم فضل السبق ، وكان على الباحث بعدهم مسؤولية الاستقصاء ، والانصراف عما أنجزوه إلى التعمق فيما خيل إلى أنهم لم يفوا به .

وبالإضافة إلى هذا فقد ظهرت بعض المصادر والبحوث التي لم تكن في أيديهم وقت إخراج كتبهم ؛ ظهرت قطعة من كتاب الرقيق القيرواني حقهها وقدمها الأستاذ المنجم الكعبي ، وهي تليق أضواء هامة وجديدة على ما نحن بصددته من بحث ، كما أنها

تقدم روايات لمن شهدوا بعض هذا الصراع ، وهذا ما تفتقده في المصادر التي كانت موجودة قبل ذلك .

وبمناسبة الحديث عن المصادر فقد اعتمدت على مصادر مشرقية ومغربية ، وكان تقديم بعضها على البعض الآخر مرهوناً بمقدار وضوحها وعدم الاضطراب في رواياتها .

وإذا كان قدم المصدر يلزمنا أن نقدمه على غيره في كثير من الأحيان ؛ فإن اضطراب روايته قد يضطرنا إلى الاتجاه إلى تقديم ما هو أحدث منه نسبياً كما حدث أن فعلنا عند الحديث عن « موقعي القرن والأصنام » ؛ فابن عبد الحكم (ت ٢٥٧) تحدث عنهما في كتابه « فتوح مصر والمغرب » ، ثم جاء بعده الرقيق القيرواني وابن عذاري والنويري وابن الأثير فقدموها على نحو آخر ، بما جعل رواية ابن عبد الحكم مضطربة ، فاضطررنا إلى الاعتماد عليهم دونه في الكتابة عن هاتين الموقعتين ، مخالفين في ذلك بعض مؤرخينا المحدثين .

أما المصادر الحديثة فقد أفدنا منها إفادة لا تنكر ، لما لها من فضل الريادة والسبق ، لكننا في بعض الأحيان كنا نختلف وإياها في وجهات النظر ، وفي تفسير بعض الروايات أو فهم الأحداث .

وجدير بالذكر أن المصادر التي ألفها كتاب من الإباضية كانت تحاول بلا استثناء رسم صورة مثلى للمجتمع الإباضي في علاقته بالمخالفين لمذهبه ، وقد انفرد هؤلاء الكتاب بروايات لا نجدتها في المصادر الأخرى ، ومن ثم تتعذر علينا المقارنة بينها وبين غيرها ؛ لكي نصل إلى وجه الحق ، ويتضح لنا ما قد حدث فعلاً ، وما سطره القوم بدافع من حبهم لرجال مذهبهم وإعجابهم بهم .

ولم اعتمد على المراجع الحديثة عندهم ، لأنها لا تختلف البتة عن مصادرهم القديمة . وكنت معهم مثل مؤرخ قديم كتب عنهم فاعتمد على الصدق في تقديم الأخبار وعزوها إلى أصحابها مع مخالفتهم في المذهب ؛ إذ كان من أهل السنة ، هذا المؤرخ هو ابن الصغير المالكي الذي كتب عن الأئمة الرستميين بتبهرت فقال : « وكانت له

(يعني عبد الرحمن بن رستم الإباضي الذي يوبع بالإمامة في عام ١٦٠ هـ) قصص حكموها (يعني رواة الإباضية) لا يمكن ذكرها إلا على وجه ، وأن أم الصدق فيها ولا أحرفها هلى معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ؛ إذ النقص في الخبر بالزيادة ليس من شيم ذوى المرات ، ولا من أخلاق ذوى الديانات ، وإن كنا للقوم بمبغضين واسيرهم كارهين ولهذا صيغهم مستقلين ، فنحن وإن ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وهدهم فيما ولوه ، فلسنا بمن تعجبه طلالة أفعالهم ولا حسن سيرهم لما نعلمه من براءتهم من والاه رسول الله ﷺ وقال : « من كنت مولاه فعلى مولاه » (١) فنحن مثل ابن الصغير المالكي في الالتزام بما حكاه القوم في كتبهم مما انفردت به رواياتهم دون تعديل أو تغيير ، وإن كنت لا أقوم على النيل من بعض الصحابة رضوان الله عليهم ؛ لأننى أجلبهم وأحتردهم جميعاً وأرى في سابقتهم للإسلام ما يجعلنا نأمل أن يفر الله لمن أخطأ منهم عن اجتهاد ظنه الحق ، ولست - كابن الصغير - كارها لسيرهم ، بل إنى ملتزم جانب الحميدة تاركاً ما اختلفنا فيه إلى الله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ، وأردد ما يقوله صاحب مختصر تاريخ الإباضية ، « إنى أريد من كل قلبى أن يزول الخلاف بين المسلمين بتاتا أو يتلطف ويخف » (٢)

وما يدعو إلى التفاؤل أن صاحب هذا الكتاب يذكر أن المتأخرين من الإباضية يرون أن التوقف في مسألة الصحابة وعدم الخوض أولى (٣)

وجدير بالذكر أن الإباضية يرون أنهم ليسوا من الخوارج ، وأن هذا الاسم ينحى ألا يطلق إلا على الفرق الأخرى من الخوارج الذين هم في نظرهم قد زاغوا عن الإسلام وابتعدوا عنه (٤)

(١) تاريخ الأئمة الرستميين لابن الصغير ص ١٠

(٢) مختصر الإباضية لأبي الربيع سليمان الباروني ص ٥

(٣) المصدر السابق ص ٦٧

(٤) مختصر الإباضية ص ٤ - الإباضية في موكب التاريخ الحلقة الأولى لعلى

يحيى معمر من ص ١٩ - ص ٣١ - ٢٥

والحق أن المبادئ التى أخذ بها الإباضية أكثر اعتدالاً مما أخذت به فرق الخوارج الأخرى ، لكننا أمام جمهور من المؤرخين يعتبرهم من الخوارج ، وفي الوقت نفسه يذكر لهم اعتدالهم عن غيرهم . وهذا ما صرنا عليه في بحثنا وفي رأينا أن الاختلاف بين جمهور المؤرخين والإباضية إنما هو اختلاف في الاصطلاح فقط ، خاصة وأن ما يردده الإباضية من مبادئ لا ينكره المؤرخون الذين تعرضوا لهذه المبادئ ، ولا يخسون لهم حقاً في هذا المجال ، ولا مشاحة في الاصطلاح ، ما دام المقصود مفهوماً ، والتمييز بين المعتدل منهم والمغالى موضعاً .

وأخيراً فلا يفوتنى أن أقدم الشكر خالصاً وحميماً إلى أساتذتى الاجلاء : فضيلة العارف بالله الشيخ محمد الحافظ التجانى ، والأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الرئيس والأستاذ الدكتور محمد حلمى محمد أحمد لما أسدوا لى من فضل الترجية والملاحظات القيمة التى أفادت البحث وصاحبه ، وأن أنوه بواجب الاعتراف بالجميل والوفاء للشيخ الصديق الأستاذ عبد الله محمد الهونى ، فهو صاحب الفضل في إخراج هذا البحث إلى النور ، جزاه الله عن البحث وصاحبه خير الجزاء .

والله أسأل أن يوفقنا إلى وجه الحق والصواب ، وأن يغفر لنا أخطائنا في اجتهادنا ، وأن يجمع كلمة الأمة الإسلامية على الحق والهدى إنه نعم المولى ونعم النصير .

القاهرة في ٣٠ / ٧ / ١٩٧١

رفعت فوزى عبد المطلب